سلسلة المقالات
المنهجية
(٣٣)

الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ العُلَمَاءُ
مُجَدِّدُو الدِّيْنِ لِلْعَالَمِينَ
«المُجَدِّدُنَ وَصِفَةُ التَّجْدِيْدِ»

كتبه
الباحث الدكتور/عيد أبو السعود الكيَّال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ أمَّا بعد:

«مقدمة المقالة»

فقد روىٰ الحاكم في «المستدرك» (٨٦٣٦) وقال حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يُخَرِّجاه، وابن ماجه في «سننه» (٤٠٤٩) وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة في زوائد سنن ابن ماجه» (٤/ ٣٨٤): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات» من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يَدْرُسُ الإسلام كما يدرس وَشْيُ الثوب، حتىٰ لا يُدْرَىٰ ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، وليُسرىٰ علىٰ كتاب اللَّه** ﷻ في ليله، فلا يبقىٰ في الأرض منه آية، وتبقىٰ طوائف من النَّاس، الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءَنا علىٰ هذه الكلمة: لا إله إلَّا اللَّه فنحن نقولها» فقال له صلةُ: ما تُغْنِي عنهم لا إله إلَّا اللَّه وهم لا يَدْرون ما صلاةٌ ولا صيامٌ ولا نسكٌ ولا صدقةٌ؟! فأعرض عنه حذيفة، ثُمَّ ردَّها عليه ثلاثًا، كُلُّ ذلك يُعْرِض عنه حُذيفةُ، ثُمَّ أقبل عليه في الثالثة قال: يا صلةُ! تُنجّيهم من النَّار، تنجَّيهم من النَّار، تُنَجّيهم من النَّار».

هذا حديث عظيم جليل يُظهر أمر دروس أركان الإسلام وشعائره، وهذه العزبة المستحكمة، وهي تختلف باختلاف الزمان والمكان، وقوة العلم والعلماء وقلّته، والموازنة بين الجهل والعلم، وزيادة التقوىٰ ونقصانها، والوعي والإدراك وحسن الفهم وصحة التصوّر بين القوّة والضعف.

قال السندي في: «شرح سنن ابن ماجه» (٤/ ٣٨٤):

«قوله ﷺ: «**يُدْرَسُ الإسلام**» من درس الرَّسم دروسًا إذا عفا وهلك، ومن

درس الثوب درسًا إذا صار عتيقًا باليًا، ويؤيد الثاني قوله: «وشي الثوْب، «وَلْيُسرىٰ» من السراية: أي الدرس والدروس ليلة «علىٰ كتاب اللَّه».». اهـ.

وقال ابن الأثير في: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ١٠٦):

«يقال: درس يَدْرُسُ دَرْسًا ودراسةً، وأصل الدراسة: الرياضة والتعهّد للشيء». اهـ.

قلت: فعند قوّة الإسلام وظهوره في عهد الخلفاء الراشدين والصحابة كلهم، كان دين الإسلام عاليًا راسخًا برسوخ العلم والفهم وصحة الاعتقاد وقوة الإيمان وزيادة التقوىٰ، ثُمَّ كان في نقصان وسيكون إلىٰ يوم القيامة.

فقد روىٰ مسلم في «صحيحه» (١٤٥) قال رسول اللَّه ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبىٰ للغرباء**».

وروىٰ مسلم أيضًا (٢٩٤٩) قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تقوم الساعة إلَّا علىٰ شرار النَّاس**».

وهذه سنة كونية، ولابدّ من التعامل معها، من خلال تجديد الدين والحفاظ عليه وإرجاعه إلىٰ مثل ما كان عليه في صدر الإسلام ما استطعنا إلىٰ ذلك سبيلًا، أخذًا بالأسباب وتقديم المعذرة إلىٰ اللَّه -مع علمنا بنصوص الغربة ونهاية الدنيا علىٰ شرار الخلق- وهذه السنن الكونية؛ فإن الجمع بين أدلة الأحكام هو الطريق للوصول إلىٰ التحقيق العلميّ السديد، علىٰ ضوء القاعدة الكلية الأصولية: «الإعمال أولىٰ من الإهمال» وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

فهذه مقالة أذكر فيها بعض الأحاديث الصحيحة في صفة تجديد الدين، ومن المجددون؟! وبيان علل الإعاقة التجديديّة، فأقول بحول اللَّه وقوّته والذي لا تتم الصالحات إلَّا به سبحانه:

الحديث الأول والثاني:

ما رواه البخاري في «صحيحه» (٣٤٥٥) ومسلم (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة عن النَّبِيّ ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبيّ خَلَفَهُ نبيّ، وإنّه لا نبيّ بعدي**».

قال النووي في: «شرح مسلم» (١٢/ ٥٣٦):

«أي: يتولّوْن أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرَّعية، والسياسة القيام علىٰ الشيء بما يُصْلحه». اهـ.

قلت: فكان وجه التجديد في هذا الحديث اندراس الدين بموت النَّبِيَّ ﷺ، ثُمَّ يجدد بنبيّ بعده.

وقال أبو العباس القرطبيّ في: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٤/ ٣٦- ٣٧):

«ولمَّا كان نبيّنَا ﷺ آخر الأنبياء بَعْثًا، وكتابه لا يقبل التغيير أسلوبًا ونظمًا، وقد تولَّىٰ اللَّه تعالىٰ كلامه صيانة وحفظًا، وجعل أمَّته قائمين ببيان مُشْكِله، وحِفْظ حروفه، وإقامة أحكامه، وحدوده، كما قال ﷺ: «**يَحْمِلُ هذا العلمَ مِنْ كلِّ خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلَين وتأويل الجاهلين**».

فلمَّا كان أمر هذه الأمة كذلك اكتفىٰ بعلمائها عمَّا كان من توالي الأنبياء هنالك». اهـ.

قلت: أمَّا الحديث الثاني والمذكور آنفًا: هو ما رواه الخطيب البغدادي في: «شرف أصحاب الحديث» (١٠، ٤٧، ٤٩، ٥٠) والآجريّ في «الشريعة» (١، ٢) والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١٠/ ٢٠٩)، وابن بطة في «الإبانة الكبرىٰ» (٣٣) وابن وضَّاح في: «البدع والنهي عنها»، وابن عبد البر في: «التمهيد» (١/ ٢٨، ٤٧، ٤٨).

قال الخطيب البغدادي عند الحديث وروىٰ بسنده عن مُهنّا بن يحيىٰ قال:

«سألت أحمد بن حنبل عن حديث معاذ بن رفاعة عن إبراهيم هذا، فقلت لأحمد: كأنه موضوع؟ فقال: هو صحيح، فقلت له: ممَّن سمعته أنت؟ قال من غير واحد، قلت: من هم؟ قال: حدثني به مسكين، إلَّا أنه يقول: معاذ عن القاسم بن عبد الرحمن، قال أحمد: معاذ بن رفاعة لا بأس به». اهـ.

وقال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٦٣):

«هذا الحديث له طرق عديدة». اهـ.

ونقل ابن كثير في: «البداية والنهاية» (١٠/ ٣٧٧) عن أبي عمر بن عبد البر تصحيح الحديث، وقال الألباني في «مشكاة المصابيح» حديث (٢٤٨) (١/ ٨٢-٨٣):

«ثُمَّ إنَّ الحديث مرسل؛ لأنَّ إبراهيم بن عبد الرحمن العذري تابعي مُقلّ، كما قال الذهبيّ، وراويه عنه معاذ بن رفاعة ليس بعمدة، لكن الحديث قد رُوي موصولًا من طريق من الصحابة، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي في «بغية الملتمس» (٣- ٤).

فذكر كلام أحمد من «شرف أصحاب الحديث» ثُمَّ قال: وقد جمعت طائفة من طرق الحديث، والنيّة متوجهة لتحقيق القول فيها». اهـ.

وعليه فحديث «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله...» ثابت، وهو الحديث الثاني من أحاديث المجددّين.

ولقد فصّلت القول في هذا الحديث في كتابي: «وجع الدين بين الاستنباط الشرعي ومقت التأويل الدفين» وبيّنت فيه معانيه ومفاهيمه، فلا داعي للإعادة هنا.

ووجه تجديد الدين في الحديثين ظاهر وبيَّن من ألفاظه، وهو رجوع الدين لمثل ما كان عليه النَّبِيّ ﷺ وأصحابه الكرام من قوّة الإسلام في صدره الأول.

الحديث الثالث:

ما رواه الحاكم في «المستدرك» (٥) وقال هذا حديث لم يخرّج في «الصحيحين»، ورواته مصريون ثقات، ووافقه الذهبي، وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (١٩٥٧) وحسنه، وقال المُناوي في: «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٢/ ٤١٩): «رواه الطبراني عن عمر بن الخطاب، قال الهيثمي: وإسناده حسن، ورواه الحاكم عن ابن عمروٍ، قال الحاكم: رواته ثقات، وأقرّه الذهبي، وقال العراقي في «أماليه» حديث حسن من طريقيه، عن عبد اللَّه بن عمروٍ بن العاص قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنَّ الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق، فاسألوا اللَّه أن يُجدد الإيمان في قلوبكم**».

قال المُناوي في شرح الحديث، كما في «الفيض»:

«قوله ﷺ: «**إنَّ الإيمان ليخلق**» أي يكاد أن يَبْليَ «في جوف أحدكم» أيها المؤمنون «كما يَخْلُقُ الثّوب» وَصَفَهُ علىٰ طريق الاستعارة، شبَّه الإيمان بالشيء الذي لا يستمر علىٰ هيئته، والعبدُ يتكلم بكلمة الإيمان ثُمَّ يَدَنّسها بسوء أفعاله، فإذا عاد واعتذر فقد جدَّد ما أخلق، وطهر ما دنَّس قوله: «فاسألوا اللَّه تعالىٰ أن يجدد الإيمان في قلوبكم» حتىٰ لا يكون لقلوبكم وجهة لغيره، ولا رغبة لسواه.

ولهذا قال معاذ لبعض صحبه: «اجلس بنا نُؤمن»؛ أي: نَذْكُرُهُ ذكرًا يملأ قلوبنا، وكان الصدّيق يقول: كان كذا، لا إله إلَّا اللَّه، فقلت كذا لا إله إلَّا اللَّه، فلا يتكلم بكلمة إلَّا ختمها به». اهـ.

قلت: ووجه التجديد في هذا الحديث ظاهر في قواه ﷺ: «**ليخلق**»؛ أي: أنَّ الإيمان يضعف ويبلىٰ في القلوب من قلّة الأعمال الصالحة، واقتراف المعاصي، وبهذا يهلك المسلم، وسبب ذلك قلّة التقوىٰ والورع، والانشغال بالدنيا، واتباع الأهواء والشهوات، والمحدثات والبدع، وكان سبب ذلك كله " قلة العلم والفهم

والتفقّه في دين اللَّه، وكل ذلك يحتاج إلىٰ تجديد الإيمان الذي هو الدين كله، أمره ونهيه، وفرضه ونفله، حدوده وأركانه.

الحديث الرابع: وهو تكملة لمعنى الحديث الثالث وبيان مقصوده:

روىٰ أحمد في «المسند» (٨٧٠٨) والبزَّار في «مسنده» (٦٦٤)، والحاكم في «المستدرك» (٧٧٣٨) وقال: صحيح الإسناد، والأصفهاني في: «حلية الأولياء» (٢٧٧٦)، وابن عدي في: «الكامل في ضعفاء الرجال» (٥/ ١٢٠) ترجمة (٩٢٥) صدقة بن موسىٰ الدقيقي، وأورده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٢٨٩) وقال: رواه أحمد والطبراني، وإسناد أحمد حسن.

وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (٣٥٨١) وصححه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٨٢): «رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات»، وقال أيضًا الهيثمي: «مجمع الزوائد» (١/ ٥٢): «رواه أحمد وإسناده جيد، وفيه سمير بن نهار، وثقه ابن حبان» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**جدِّدُوا إيمانكم**» قيل يا رسول اللَّه، وكيف نجدد إيماننا؟ قال: «أكثروا من قول لا إله إلَّا اللَّه».

قال ابن حجر العسقلاني في: «مختصر الترغيب والترهيب» (١٣٣): «رواه أحمد وسنده حسن، والطبراني». اهـ.

قال المُناويّ في: فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٣/ ٤٤١):

«قال ﷺ: «**جدّدوا إيمانكم**» قيل: يا رسول اللَّه كيف نجدّده؟ قال: «أكثروا من قول لا إله إلَّا اللَّه»؛ فإنَّ المداومة عليها تجدد الإيمان في القلب، وتملأه نورًا، وتزيده يقينًا، وتفتح له أسرارًا يُدْركها أهل البصائر، ولا يُنكرها إلَّا كل ملحد جائر، قال الهيثمي: إنَّ سند أحمد جيد، وقال في موضع آخر: رجاله ثقات». اهـ.

قلت: وقال علىٰ القاري في: «مرقاة المفاتيح» (١/ ٤٦١): «رواه أبو داود والطبراني في «الأوسط»، وسنده صحيح ورجاله ثقات وكذا صححه الحاكم». اهـ.

الحديث الخامس:

روىٰ أبو داود في «سننه» (٤٢٨٤) في كتاب الفتن تحت أبواب الملاحم، والحاكم في «المستدرك» (٨٥٩٢، ٨٥٩٣) في كتاب الفتن والملاحم وصححه، وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (١٨٤٥) وصححه، قال المُناوي: «قال الزين العراقي وغيره: سنده صحيح، ومن ثَمَّ رمز السيوطي لصحته»، من حديث أبي هريرة أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «**إنَّ اللَّه يبعث لهذه الأمة علىٰ رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**».

قال أبو الطيب في: «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (٧/ ٣٥٦- ٣٥٩):

«قال العلقمي في شرحه: معنىٰ التجديد: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسُّنَّة والأمر بمقتضاها؛ فظهر أنَّ المجدد لا يكون إلَّا مَنْ كان عالمًا بالعلوم الدينية، ومع ذلك كان عَزْمُه وهمّته آناء الليل والنهار: إحياء السنن، ونشرها، ونصر صاحبها ﷺ، وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها، وكسْر أهلها باللسان، أو تصنيف الكتب والتدريس، أو غير ذلك، ومن لا يكون كذلك لا يكون مجددًا البتّة، وإنْ كان عالمًا بالعلوم بين النَّاس ومرجعًا لهم». اهـ.

قال القاري في: «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (١/ ٤٦١، حديث (٢٤٧):

«قوله ﷺ: «**علىٰ رأس كل مائة سنة**»؛ أي: انتهائه أو ابتدائه؛ إذا قل العلم والسُّنَّة، وكثر الجهل والبدعة [قلت: فالعلّة ظاهرة، ومن ثَمَّ توجب علىٰ العلماء أن يجددوا دين النَّاس كلمَّا وجدت العلة، والقاعدة الكلية: «الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا فإذا وُجدت وُجِدَ الحكم، وإذا انتفت العلة انتفىٰ الحكم»

ونحن الآن تتجدد كل يوم علل تترىٰ ولا حول ولا قوة إلَّا باللَّه، واللَّه المستعان وعليه التكلان].

[قال القاري:] قوله: «يجدد» مفعول: «يبعث» قوله: «لها»؛ أي: لهذه الأمة قوله: «دينها» أي يُبيّن السُّنَّة من البدعة، ويكثر العلم ويعزّ أهله، ويقمع البدعة ويكسر أهلها [يعني: بالحجة والبيان والدليل والبرهان].

[قال القاري:]

قال صاحب: «جامع الأصول» [يعني: ابن الأثير:]، والأوْلىٰ الحمل علىٰ العموم؛ لأنَّ لفظة: «من» [في الحديث] تقع علىٰ الواحد والجمع.

[قال القاري:]

والأظهر عندي واللَّه أعلم: أنَّ المراد بمن يُجدّد ليس شخصًا واحدًا؛ بل المراد به جماعة، يجدد كل أحد في بلد في فنّ من الفنون من العلوم الشرعية ما تيسّر له من الأمور التقريرية أو التحريرية، ويكون سببًا لبقائه وعدم اندراسه وانقضائه إلىٰ أن يأتي أمر اللَّه.

ولا شك أنَّ هذا التجديد أمر إضافيّ؛ لأنَّ العلم كل سنة في التّنزّل، كما أنَّ الجهل كل عام في التّرقي [كما رواه البخاري في «صحيحه» (٧٠٦٣) ومسلم (٢٦٧٢) قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنَّ بين الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج، والهرج القتل**»].

وإنَّما يحصل ترقيّ علماء زماننا بسبب تنزّل العلم في أوانا، وإلَّا فلا مناسبة بين المتقدّمين والمتأخرين علمًا، وعملًا، وحلمًا، وفضلًا، وتحقيقًا، وتدقيقًا؛ لما يقتضي البعد عن زمنه ﷺ؛ كالبعد عن محل النَّور؛ يوجب كثرة الظلمة، وقلة الظهور، ويدلُّ عليه ما في البخاري [في «صحيحه» (٧٠٦٨) عن أنس مرفوعًا [إلىٰ النَّبِيّ ﷺ قال]: «**اصبروا فإنّه لا يأتي عليكم زمان إلَّا الذي بعده شرّ منه؛ حتىٰ**

تلقوا ربّكم».

وما في الطبراني عن ابن عباس قال:

«ما من عام إلَّا ويُحْدِثُ النَّاس بدعة ويميتون سنة، حتىٰ تمات السنن وتحيا البدع» [ورواه المروزي في «السُّنَّة» (١٠٠)]. . . . . اهـ.

وقال المناويّ في: «فيض القدير» (٢/ ٣٦٥):

«قالوا: ولا يكون إلَّا عالمًا بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة».

قال ابن كثير:

«قد ادَّعىٰ كل قوم في إمامهم أنّه المراد بهذا الحديث، والظاهر: أنه يَعُمّ جملة من العلماء كل طائفة وكل صنف من مفسّر، ومحدّث، وفقيه، ونحوي، ولغوي، وغيرهم». اهـ.

قلت: وبهذه النقولات السابقة تظهر صفة التجديد المراد والمقصود.

وما قاله ابن كثير هو الحق عند التقصّي والتحقيق، لأنَّ قوله ﷺ في هذا الحديث «من» تشمل العموم الكلِّي كما تقرر عند أهل أصول الفقه، قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فبدأ اللَّه تعالىٰ الآية بـ«مَنْ» وختمها بـ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهذا يدلُّ علىٰ العموم، ومن تُناسب الفرد والجماعة بلا خلاف.

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤]، وكذلك آلاف الأحاديث بلفظة «من» للعموم.

منها: «**من بنىٰ مسجدًا للَّه، بنىٰ اللَّه له بيتًا في الجنَّة**» رواه مسلم في «صحيحه» (٥٣٣) والبخاري في «صحيحه» (٤٥٠).

ومنها: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب اللَّه عليه**» رواه مسلم (٢٧٠٧).

ومنها: «**من أطاعني فقد أطاع اللَّه ومن عصاني فقد عصىٰ اللَّه**» رواه البخاري في «صحيحه» (٧١٣٧) ومسلم (١٨٣٥)، وغيرها من الأحاديث المستفيضة.

- **الغربة وأثرها في الإعاقة التجديدية:**

- **وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في: «مجموع الفتاوىٰ» (١٨/ ٢٩٧) وذلك في معرض حديثه عن الغربة، فذكر حديث مسلم في «صحيحه» (١٤٥) قال رسول اللَّه ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبىٰ للغرباء».**

قلت: وهذا الحديث يبيّن الضرورة الملحّة للتجديد بعلله.

وذكر ما رواه البخاري في «صحيحه» (٣٦٤٠، ٣٦٤١) ومسلم (١٧٠/ ١٩٢٠) عن رسول اللَّه ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين علىٰ الحق، لا يضرّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ تقوم الساعة**».

قلت: وكذلك هذا الحديث إظهار للأسباب ولوازم التجديد الحق.

- ثُمَّ قال شيخ الإسلام:

«وفي السنن: «إنَّ اللَّه يبعث لهذه الأمة . . . .»، والتجديد إنَّما يكون بعد الدروس، وذاك هو غربة الإسلام.

وهذا الحديث يفيد المسلم أنّه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الإسلام، ولا يضيق صدره بذلك، ولا يكون في شكّ من دين الإسلام، كما كان الأمر حين بدأ، قال تعالىٰ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] إلىٰ غير ذلك من الآيات والبراهين الدَّالة علىٰ صحة الإسلام.

وكذلك إذا تغرَّب يحتاج صاحبه من الأدلة والبراهين إلىٰ نظير ما احتاج إليه في أوّل الأمر، وقد قال له: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ

مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٤- ١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقد تكون الغربة في بعض شرائعه، وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة، ففي كثير من الأمكنة يخفىٰ عليهم من شرائعه ما يصير به غريبًا بينهم، لا يعرفه إلَّا الواحد بعد الواحد». اهـ.

• خطورةُ الأَمْرِ وعِظَمُهُ وجَلالَتُهُ:

فقد روىٰ المروزيّ في: «السُّنَّة» (١٠٩) عن أبي عطاء اليحبوريّ قال: قال لي عبادة بن الصامت: «يا أبا عطاء، كيف تصنعون إذا فرَّ قُرَّاؤكم وعلماؤكم منكم، حتىٰ يصيروا في رؤوس الجبال مع الوحش؟» قال: قلت: ولم يفعلون ذلك؟! قال: «خشية أن تقتلوهم» قال: قلت: سبحان اللَّه! أنقتلهم وكتاب اللَّه بين أظْهُرِنَا نقرءوه؟! قال: «ثكلتك أبا عطاء أمُّك، ألم ثرث اليهود التوراة ثُمَّ ضلّوا عنها وتركوها؟! ألم ترث النصارىٰ الإنجيل ثُمَّ ضلوا عنه وتركوه؟! إنَّما هي السُّنن يتبع بعضها بعضًا، وإنه واللَّه، ما من شيء فيمن كان قبلكم إلَّا سيكون فيكم».

• التعليق على ما مرَّ وخلاصة المسألة:

فإذا كان ذلك كذلك وتقرر عندك ما مضىٰ بيانه بدليله وتعليله فاعلم:

١- أنَّ صفة تجديد الدين هنا إرجاعه لما كان عليه في عصر رسول اللَّه ﷺ والخلفاء الراشدين إلىٰ موت عثمان بن عفّان رضي الله عنه، حتىٰ بدأت الفتن العظام بقتله ونَحْره، فاختلط الحابل بالنَّابل، وظهر الفساد في البرّ والبحر، وكثر القتل وعمّت

الفوضىٰ، ولبّس علىٰ الكثير الحقّ من الباطل.

غير أنَّ الخيرية كانت وما زالت في القرون الثلاثة الأول، كما في حديث البخاري في «صحيحه» (٢٦٥١) ومسلم (٢٥٣٣) قال ﷺ: «**خير النَّاس قرني ثُمَّ الذين يلونهم ثُمَّ الذين يلونهم**»، وكان أوَّل المجدَّدين عمر بن عبد العزيز الإمام، ثُمَّ امتددت الأمة في التجديد في عصر الأئمة الأعلام كالأوزاعي، وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن مهدي، وأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وابن معين وابن المديني وشعبة بن الحجاج، ثُمَّ من بعدهم من الأئمة كالبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه، والطبراني، والطبري، والدارميّ، وابن أبي شيبة وعبد الرزاق الصنعاني وجل الأئمة يعدهم ما ذكر وما لم نذكر.

فلا يزال الدين مجدّدًا وتتوالىٰ عليه الأئمة كالإمام ابن تيمية أبي العباس وأصحابه: ابن القيم، وابن كثير، والذهبي، وابن حجر العسقلاني وغيرهم كثير ممَّا لا يعد ولا يُحْصىٰ.

• حتىٰ وصل الأمر إلىٰ يوم النَّاس هذا، فقل العلم، وانتشر الجهل، ونطق الرويبضة، وكثرت البدع والمحدثات، وفسدت الأخلاق والعقائد، وتحزّب الأحزاب، وظهر الإلحاد والرِّدة، ونادىٰ المخنّثون بزواج الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة، وكانت العلمانية، واللبرالية، والشيوعية، والبوذية، وعبادة الأصنام في مجاهل إفريقيا وغيرها من القارات، وظهر الإسلام فوبيا، واضطهاد المسلمين في شتىٰ أنحاء العالم، وظهرت كذلك الجماعات الإرهابية من المسلمين الموحدين كالقاعدة وما تفرع منها، والدواعش، وبوكو حرام، وما كان منها في سيناء، والصومال، وبعض الدول الإفريقية الأخرىٰ، وما شابه من حركة طالبان، وأنصار بيت المقدس، وحدّث ولا حرج، وطاعون المظاهرات والثورات التي دبّت في نعش الأمة فأهلكتها.

فهنا تعين تصفية الدين وتجديده، وتنقيتهُ ممَّا دخل علىٰ أصوله وأركانه ودعائمه، ونقض التراب العقدي، والانحراف الأخلاقي والمالي والفكري، من كل ما خالف الصدر الأول من الإسلام، ما كان علىٰ مثل ما كان عليه النَّبِيّ وأصحابه الأئمة الأعلام.

٢- وهنا نتكلم علىٰ كيفية إرجاع الدين إلىٰ صفته الحقة، وهذا لا يكون إلَّا بالعلم النافع في ا لدين والدنيا وفي شتىٰ المجالات، أولًا بصلاح المعتقد، ثُمَّ بصلاح الأخلاق والمعاملات، ثُمَّ بالالتزام بالأمر والنهي والوقوف عند حدود اللَّه، ومعرفة الحلال والحرام، والحق والباطل، والهدىٰ والضلال، والسُّنَّة والبدعة، والمحكم والمتشابه، ومعرفة العلم النافع من الفاسد، والمصلح من المفسد، والتوعية المستمرة الدّؤوبة لشباب المسلمين في أنحاء المعمورة، والمحاولات الكلية لتفهيم هؤلاء البراعم بما يحفظهم عن الانحراف الفكريّ والعقدي الذي لا تُحمد عقباه، وزرع التقوىٰ في قلوبهم، والحرص علىٰ الإدراك التربوي السليم، والتصور العقلي المضبط علىٰ مقاصد الشريعة التي مدارها علىٰ جلب المصالح ودفع المفاسد ما أمكن إلىٰ ذلك سبيلًا، فذلكم الرباط.

ومن أجل التجديد الإصلاحي الرجوع إلىٰ اللَّه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فهذا جماع الخير كله، واجتناب الشرّ كله، حتىٰ لا يحرّف الدين، وتغرس في قلوب المسلمين ما يخالف الدين والعقل والفكر والأخلاق.

٣- ومن الأهمية بمكان في هذا السياق التجديدي للدين: ضَبْطُ الوسطيَّة الدينية، فكل أمر وشأن وشيء له طرفان ووسط، فطرف في الإفراط والآخر في التفريط، طرف في التشديد وآخر في التسيب، طرف علىٰ السُّنَّة وطرف في البدع والمحدثات والأهواء والشهوات، وبين هذا وذاك الوسط الحق

في شتىٰ أمور الدين والدنيا، فإنَّ الحلال بيِّن وإنَّ الحرام بيِّن، والصّبيّ قبل الكبير العاقل يعلم ما يجوز وما لا يجوز في الأمور التي علمت من الدين بالضرورة، فلابد من تنقية الوسطية ممَّا يجعلها في طرف من طرفي الشيء، سواء في طرف الإفراط أو التفريط، وعلىٰ ضوئه، لا يحل تحليل ما يُعْلم تحريمه، وهذا من أعظم الفساد في الأرض قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، فهذا قطب من أقطاب الضلال والميل والزيغ والانحراف، والآية من سورة النحل المذكورة آنفًا البرهان اليقيني علىٰ ذلك، فالتحليل والتحريم بما قاله الكتاب والسُّنَّة، فلا تحليل ولا تحريم إلَّا بالدليل الشرعي الصحيح الصريح، فقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٨، ٥٩].

فمن حرم حلالًا أو أحلَّ حرامًا من غير بينة ولا حجة وبرهان ولا محجة ولا دليل فهو من المفترين الذين شاقّوا اللَّه ورسوله، وهو من الخاسرين الذين اشتروا بآيات اللَّه ثمنًا قليلًا، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [لقمان: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال الإمام أبو عبد اللَّه القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ١١٧):

«قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ والمعنىٰ: وكما أنَّ الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمّة وسطًا، أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم.

والوسط: العدل، وأصل هذا: أنَّ أحمد الأشياء أوْسطها.

وروىٰ الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النَّبِيّ ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عدلًا» قال الترمذي في «سننه» [(٢٩٦١)]: هذا حديث حسن صحيح.

وفي التنزيل: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨]؛ أي: أعدلهم وخيرهم.

ولمَّا كان الوسط مجانبًا للغلو والتقصير كان محمودًا، أي هذه الأمة لم تَغْل غلوّ النصارىٰ في أنبيائهم، ولا قصّروا تقصير اليهود في أنبيائهم.

وفلان من أوسط قومه، وإنَّه لواسطة قومه؛ أي: خيارهم وأهل الحسب منهم». اهـ.

قلت: ولذلك قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فلمَّا كانت وسطية الأمة هي خيريتها كانت أفضل الأمم وأقومها وأحسنها، وكانت شروط تحقق هذه الوسطية الإيمان باللَّه إيمانًا خالصًا صادقًا قولًا وعملًا، ومن الإيمان: الأمر بالمعروف الذي هو جلب المصالح كلها، والنهي عن المنكر وهو دفع المفاسد كلها، وهذه هي مقاصد الشريعة، جلب الخيرات ودفع الشرور والمفاسد، فهذه هي الوسطية الحقّة.

وأصل الدين كله قائم علىٰ أسس المقاصد الشرعية ومنها التسهيل واليسير والوسطية فقد روىٰ البخاري في «صحيحه» (٦١٢٦) ومسلم (٢٣٤٧) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خُيِّر رسول اللَّه ﷺ بين أمرين إلَّا أخذ أيسرهما -وفي

رواية- إلَّا اختار أيسرهما؛ ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد النَّاس منه».

فضبط رسول اللَّه ﷺ أمر اليسير والتسهيل بحلّية الأمر وعدم كونه حرامًا وإثمًا، وهذا هو المعوّل عليه في شأن الحنيفية السمحة.

وروىٰ البخاري في «صحيحه» (٣٩) باب الدين يسر، وقوله ﷺ: «**أحب الدين إلىٰ اللَّه الحنيفية السمحة**» [رواه أحمد في «المسند» (٢١٠٧) وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (٢٠٨) وحسنه ابن حجر في «فتح الباري» (١/ ١٢٧)] من حديث أبي هريرة عن النَّبِيّ ﷺ قال: «**إنَّ الدين يُسر، ولن يُشادّ الدين أحدٌ إلَّا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا**».

فإذا تحققت هذه الوسطية بين الإفراط والتفريط، والتشديد والتسيب استقام للنَّاس أمر دنياهم ودينهم، وجُدّدت الأمور الشرعية التي ينبغي لها أن تُجَدَّد.

٤- معرفة العالم الربّاني المجدد وهو العالم العامل المعلم، بفقه، وفهم، وإدراك، ووعي، وتمسك بالكتاب والسُّنَّة والإجماع، ومعرفة فقه مقاصد الشريعة، واعتداله ووسطيته وخيْريَّته، حتىٰ ينصلح أمر التجديد، فلا يتبع زلات العلماء، ولا يتبع المتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، بل يتمسك ويعتصم بالمحكم والثوابت والنصوص الشرعية والقطعيات المجمع عليها، فحاصل القول: أنَّ التجديد الصحيح هو ما يوافق كل هذه الأصول والاعتبار الشرعي العقليّ المنضبط علىٰ الكتاب والسُّنَّة.

- **ضوابط المراتب التي يتّصف ويتحلّى بها المجدِّدُون لدين اللَّه:**

قال ابن القيم في: «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣/ ٧- ٨):

«فجهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها علىٰ تعلّم الهدىٰ ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلَّا به، ومتىٰ فاتها علْمُهُ شقيت في الدَّارين.

الثانية: أن يجاهدها علىٰ العمل به بعد علمه، وإلَّا فمجرّد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها علىٰ الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلَّا كان من الذين يكتمون ما أنزل اللَّه من الهُدَىٰ والبيّنات، ولا ينفعه عِلمُهُ، ولا ينجّيه من عذاب اللَّه.

الرابعة: أن يجاهدها علىٰ الصبر علىٰ مشاق الدّعوة إلىٰ اللَّه، وأذَىٰ الخلق، وتحمّل ذلك كله للَّه.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربَّانيين.

● فإنَّ السلف مجمعون علىٰ أنَّ العالم لا يستحقّ أن يُسمَّىٰ ربَّانيًّا حتىٰ: يعرف الحق، ويعمل به، ويُعلّمه، فمن عَلمَ وعَمل وعلَّم، فذاك يُدْعَىٰ عظيمًا في ملكوت السماوات». اهـ.

● **تجديد الدين على الضدّ من الدروس وهو مَحْو الشيء وفناؤه:**

قال الرّاغب الأصفهاني في: «المفردات في غريب القرآن» (ص: ١٦٧):

«درس: دَرَسَ الدَّار معناه: بَقِيَ أثرها، وبقاء الأثر يقتضي انْمِحاءَه في نفسه، فلذلك فُسِّر الدُّروس بالانمحاء، وكذا دَرَسَ الكتابُ ودرسْتُ العلم: تناولت أَثَرَهُ بالحفظ، ولما كان تناول ذلك بمداومة القراءة، غُيِّر عن إدامة القراءة بالدَّرْسِ، قال تعالىٰ: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقال: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ [سبأ: ٤٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، وقيل: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ [الأعراف: ١٦٩]: تركوا العمل به، من قولهم: درس القوم المكان أي: أبْلوْا أثره». اهـ.

قلت: فلكي يتم التجديد، لابد من عدم ترك الاهتمام بأصول الدين وأركانه،

بل بالسعي الحثيث للتعلم والتعليم، والتفقه والفقيه، والتفهم والتفهيم، والتصور والتصوير؛ حتىٰ يحدث الإدراك، ويتم الوعي السلم لحقيقة الدين، وليعلم النَّاس أنَّ دروس الدين هلاك للعالمين: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦، ١٠٧].

هذا ما كان من الكلام والبحث في هذه المسألة الجدّ خطيرة ومهمة، حتىٰ يكون الأمر علىٰ إجماع أهل العلم أنَّ: العلم معرفة الحق بدليله، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، فألزمت نفسي في هذه المقالة بما ترجح بالحجة والمحجة -وعلىٰ هذا أسير في منهجي الاستدلالي في كل مسألة أبحث فيها عن الحق، علىٰ ما يَتَيَسَّرُ لي بحول اللَّه وقوته والذي لا يتم الصالحات إلَّا به- ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، واللَّه تعالىٰ أعلىٰ وأعلم، واللَّه الموفق والمسدّد إلىٰ سواء السبيل، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه ربّ العالمين.

وقّعَهُ

الباحث الشرعي الدكتور/ عيد أبو السعود الكيَّال